فبعض الأسيرات فضلن الزواج من أسرى محررين مثلهن، حتى لو كانوا من ديانة مختلفة وقد صدم ذلك القبيلة، نظرا لقدرة هؤلاء الرجال على تقدير حجم المعاناة التي عشنها أكثر من غيرهن. كما أصبح جل همهن الاهتمام بأمهات المساجين والمطالبة بتحسين ظروف السجن، تقول إحداهن.

وقد نجحت المخرجة في الإمساك بخيوط الموضوع السياسي دون السقوط في المباشرة والتنميط، واستطاعت أن تمسك بالمتفرج الذي استمع بألم إلى مناضلات عاشوا أحلام النضال والتغيير وتحرير الوطن وانكسروا مع انكسار الواقع : «كنت أريد أن أغير العالم. الآن أعرف أن ذلك مستحيلا. يمكنني فقط أن أغير شكل هذه الورقة... لم أطلع من السجن، لقد خرجت والسجن معي». تقول إحدى الأسيرات المحررات.

الفيلم عبارة عن تفاصيل صغيرة صادقة هي نسيج لحياة وتجربة بكاملها، ولأول مرة يصور البطل المناضل في هشاشته وضعفه الإنساني، لوحة موضوعية أمسكت بها المخرجة، دون السقوط في العواطف، أو العنف، فهي لم تصور مشهد تعذيب واحد على المباشر. ايحاؤها بالتعذيب كتصوير لموضوعها في أول الفيلم كان عبر مشهد من فيلم جميلة بوحيرد على شاشة التلفزيون، نسمع الصراخ ولا نرى إلا الأشباح أمام هدوء امرأة صلبة وجميلة كانت تجلس أمام الشاشة. لكن الهفوة الوحيدة للمخرجة تمثلت في تدخلها في السرد، إذ تخلت عن حيادها وموضوعيتها في بداية الفليم ودخلت في حوار سياسي مع الجندي الذي منعهم من اجتياز الحاجز الأمني. فالمخرجة وشاهدتها الأولى تحاولان اجتياز الحاجز، يوقف العسكري السيارة، يعلو صراخ المخرجة، يطردها العسكري فتدخل معه في حوار بديهي أجوف لا قيمة فنية له على الإطلاق، بعدها تنزوي المخرجة خلال المدة التي يدومها الفيلم، توجه الموضوع وتترك المجال لتحرك وتعبير الشاهدات الأربع.

تخرجت بثينة خوري من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة، وبعد أن عملت في عدة محطات تلفزيونية، عربية وعالمية وقدمت أفلاما لـ «بي. بي. سي» و«آي. تي. آن»، أصبحت منتجة لأفلامها وأسست شركة مجد للإنتاج الفني عام 2000 لتحافظ على حريتها في اختيار المواضيع التي تؤرقها. وبثينة خوري هي أول فلسطينية قدمت عملا مشتركا مع مخرجة إسرائيلية (1992) في فيلمها «نساء بالجوار» الذي رصدت من خلاله حياة نساء في مخيم للاجئين برام الله، في الوقت الذي رصدت فيه ميخال أفياد الإسرائيلية، نظرة أمهات جنود الاحتلال والمستوطنات لمعاناة المرأة الفلسطينية.

هذه الشجاعة والإصرار والرؤية الثاقبة للواقع الفلسطيني، الراهن هي التي جعلتها تفكر بعد «نساء في صراع» باقتحام موضوع «جرائم الشرف»، حيث تنطلق من حادثة «الطيبة»، إحدى قرى رام الله - حيث تعيش المخرجة - إذ قام شباب بلدة «دير جرير» بحرق سيارات ومنازل في القرية المجاورة بسبب وجود علاقة «غير شرعية تربط شابا من «الطيبة» مع فتاة من «دير جرير» قتلها أهلها حين علموا بعلاقتها مع الشاب المسيحي. كانت كاميرا المخرجة هو أول ما كسره الشباب الغاضب بعد أن هددوا بحرق منزل أهلها. وعلى الرغم من التحذيرات التي تلقتها من خطورة تصوير الفيلم ومن الحديث إلى وسائل الإعلام في هذا الموضوع إلا أن بثينة خوري تصر على رفع التحدي. فمن قال بأن النساء ضعيفات ؟ ●

عائشة عودة الأسيرة المحررة ومشهد من الفيلم